

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية: أصول الدين

قسم: العقيدة الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

-قسنطينة-

مداخلة للملتقى وطني بعنوان: (علم الكلام الواقع والآفاق)

-موقف ابن خلدون من علم الكلام: هل هو عصي عن التصنيف أم هو تراجع عن آراء-أمودجا

إعداد الطالبة: مريم فيلاي

تخصص: عقيدة إسلامية

طالبة: دكتوراه سنة أولى

السنة الجامعية: 2017-2018م

مقدمة:

ابن خلدون يُعدّ من علماء المغرب الغربي الذين أثروا الفكر الإسلامي، ويبرز البحث النص الخلدونيّ المتمثّل في تعريف علم الكلام والمسائل المندرجة ضمنه، وقد حصر ابن خلدون علم الكلام على أهل السنّة والجماعة وبالأخص الأشاعرة، ورأى ضرورة الاستناد إلى الأدلة النقلية والعقلية في إثبات قضايا الإيمان، وأردت من خلال هذا البحث التأكيد على ازدواجية الموقف الخلدوني من علم الكلام خلال فترة حياته، ولاشك أن لحشيات العصر الاجتماعية العامة دورا في طبيعة الموقف أو المواقف التي اتخذها فقهاء بلاد المغرب منهم ابن خلدون من علم الكلام وغيره في العصر المريني وبعده حيث تراجع الاهتمام بالعلوم الأخيرة بين منافع ومناهض وبين مؤول ومفوض وبين معترض مجادل ورافض متشدد، فالتشكيك في شرعية هذه العلوم ومنها علم الكلام قد صاحبها منذ ظهورها على أرض الإسلام غير أن النقاش حول جدوى علم الكلام عاد ليزر بجدة بعد تراجع الاهتمام بعلوم الفلسفة بين علماء أهل السنة الذين انقسموا الى مؤيدين ورافضين ومعتمدين لمواقف توفيقية. غير أن هناك تساؤلا يخطر ببالنا إذا كان ابن خلدون ألف كتاب المحصل فظهر فيه متكلما أشعريا ليعود ليقول بمقدمته أن علم الكلام علم عفا عنه الزمن وانقرض بانقراض الشبهات والمتشككين وأن أهل السنة والأشاعرة على وجه الأخص قد كفونا من الشبهات بما طرحوه من القضايا، وعلى الرغم من عدم صحة هذا الفرض وعدم تصويبي له فان الموقف الثاني لابن خلدون يطرح تساؤلا ما هو الموقف الذي ظل عليه ابن خلدون فان الفترة بين تأليف المقدمة ووفاته تتجاوز الثلاثين السنة؟

ابن خلدون: (732-808هـ)، (1331-1406م)

أ- المولد والنشأة:

- ذكره ابن الخطيب¹ فقال هو ابن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الأندلس، وينتسب سلفهم إلى وائل بن حجر².

- ولد بتونس برمضان وفيها شب وتعلم فكان أبوه معلمه الأول، ثم اختلف على العديد من العلماء والمشايخ الذين استقطبتهم تونس من مختلف بلاد المغرب والأندلس فحفظ عليهم القرآن وجوده بالقراءات السبعة وتلقف عنهم علوم الشرع ودرس علوم اللسان ثم درس المنطق والفلسفة وعلوم الطبيعة والرياضة، يقول ابن الخطيب (قرأ القرآن على المكتب "أبي عبد الله محمد بن سعد ابن برال" يقول ابن خلدون فيه (أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية وكان اماما في القراءات)³، والعربية والفقه والمعقول وسائر الفنون على المقرئ "أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب وابن العربي"، وتأدب بأبيه وأخذ عن المحدث "أبي عبد الله محمد بن جابر الواد ياشي" الذي وصفه ابن خلدون بصاحب الرحلتين، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام الذي اخذ عنه سماعا واجازة الأمهات الست وكتاب الموطأ والسير لابن اسحق وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وروى عن الحافظ عبد الله السطحي والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، ولازم العالم الشهير "أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي" يصفه ابن خلدون بشيخ العلوم العقلية وأصله من تلمسان⁴ فانتفع به⁵

- لما بلغ ابن خلدون الثامنة عشر اجتاح تونس الطاعون فممن أهلك أبويه وجميع من أخذ عنهم العلم.

1- محمد بن عبد الله بن احمد السلماني : المعروف بابن الخطيب ، قرطي الأصل ثم طليطليه ثم لوشيه ثم غرناطيه يكنى أبا عبد الله ويلقب بلسان الدين توسط له ملك المغرب واستعان به السلطان ابي عبد الله في فك رهن ابنه وكان وزير وشاعر السلاطين، قرأ القرآن والعربية على يد ثلة من العلماء منهم أبي عبد الله بن عبد الولي العواد وأبي القاسم بن جزى، وكتب في فنون عدة في التاريخ والعادات والسياسة فكتب (اللمحة البدرية في الدولة النصرية، السحر والشعر، المحبة، الطاعون، البيطرة، الوزارة، مقام السياسة، حل الجمهور على سنن المشهور) ،المصدر أبي عبد الله محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مراجعة وتقديم بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، ط1، سنة 2009م، ج5، صص(642، 652، 674، 675، 677، 688)

2-المصدر نفسه، ج4، ص516

3-عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، منشورات دار الكتاب اللبناني، د.ط، سنة 1979م، ص 17

4- المصدر نفسه، ص21

5-أبي عبد الله محمد ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص519

-لقبه السلطان الظاهر برقوق من سلاطين الماليك في مصر عند عهده إياه بمنصب قاضي قضاة المالكية في مصر سنة ولقبه بالوزير والفقير والرئيس وجمال الإسلام والمسلمين.

-في عهد الوزير أبو محمد بن تافراكين تولى ابن خلدون سنة 751هـ كتابة "العلامة" للسلطان وكانت أول وظيفة يتولاها في دولة بني حفص¹.

-عقب سقوط حكم ابن تافراكين في 754هـ هرب ابن خلدون للجزائر وتزوج، وفي فاس عاود ابن خلدون الدرس والاتصال بالشيوخ والعلماء من المغرب وممن وفد عليها من الأندلس.

-ثم ارتحل إلى غرناطة في الأندلس 764هـ واتصل بأمر غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر ووزيره الأديب لسان الدين ابن الخطيب الذين تربطهما بابن خلدون صداقة قوية حيث تولى مناصب عديدة وكان في كل مرة عرضة للوشاية والعزل فكان يبتعد عن السياسة لكن ولعه بها يعيده إليها ويموت الوزير ابن الخطيب انقطع ابن خلدون عن السياسة وانغمس بالكتب وبدأ بالترحال ليكمل كتاباته ويتعرف على التاريخ.

-يقول ابن الخطيب في 768 عمل ابن خلدون عند الأمير أبي عبد الله بن الأمير أبي حفص ببجاية فولاه الحجابة، ثم ظهر عليه ابن عمه الأمير أبو العباس صاحب قسنطينة ثم اختلف معه بسبب الوشايات فانصرف عنه واستوطن بسكرة بجوار أبي العباس بن مزني²

-انتقل الى القاهرة 784هـ وبقي بها عهدا من الزمن فدرس بالأزهر وأشهر مدارسها وتولى مشيخة خانقاه بيبرس الذي كان من أكبر التجمعات الصوفية وتقلد فيها منصب شيخ قضاة المالكية، وفي 789هـ سافر لتأدية فريضة الحج، وسافر الى القدس سنة 802هـ وكانت آخر رحلاته الى دمشق والتقى فيه بتمورلنك سنة 803هـ، يصف ابن خلدون ظروف هذا اللقاء أنه كان بالشام وكانت في حالة هياج واضطراب خوفا من غزوهم من قبل التتار فخرج ليلا فاستقبل بخيمة تيمورلنك وعرف بأنه قاضي المالكية المغرب وكان المترجم للحوار من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء المالكية بخوارزم سال ابن خلدون عن الناس وعن حياته وعن المغرب ثم لم يكتف بذلك يقول في ذلك ابن خلدون (فقال لا يقنعني هذا وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أفاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره حتى كأني أشاهده، فقلت يحصل ذلك

¹-الحفصيون : ينتمي الحفصيون الى قبيلة مضمودة البربرية ومسكنها في جبال الأطلس استمدت التسمية من "أبي حفص عمر" (1174-

1195م) أحد أجداد الأسرة ومن رجالات ابن تومرت الأوفياء، بعد وفاته تنازع أولاده الحكم وفي منتصف القرن الرابع عشر ميلادي استولى المرينيون على البلاد بعد جلاء المرينيين استعادت الدولة الحفصية حيويتها ونشاطها مع حكم كل من أبي العباس أحمد وأبي فارس عبد العزيز ثم أبي عمر يحيى، عرفت هذه الفترة الاستقرار وعم الأمن أرجاء الدولة، أصبحت العاصمة تونس مركزا تجاريا (المصدر سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، سنة 2009م، ص 188)

²- أبي عبد الله محمد ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص ص (562-563)

بسعادتك وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك وأوعبت الغرض فيه في مختصر وجيز قدر اثنتي عشرة من الكرايس المنصفة القطع¹ هو ثم عاد لمصر.

-توفي ابن خلدون في السادس والعشرين من رمضان ودفن بمقابر الصوفية بالقاهرة.

ب- مؤلفاته:

1- لباب المحصل في أصول الدين، في علم الكلام، يعرض فيه ابن خلدون مقدمات وبديهيات ومسألة العلة والمعلول والكثرة، ويتعرض للذات والأفعال والأسماء والصفات الإلهية، وفي السمعيات يتطرق لمسألة النبوة والمعاد والسماء والأحكام والإمامة²

2- المقدمة، والعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ويسمى كذلك "تاريخ ابن خلدون" يقول مصطفى الشكعة (في الخامسة والأربعين من عمره اعتزل الناس وآوى الى أحد قصور بني عريف في قلعة ابن سلامة، التي تقع في مدينة ندرومة الحالية التابعة لولاية تلمسان غير بعيد عن الحدود الجزائرية المغربية، وظل بها عاكفا على الكتابة لمدة أربع سنوات أخرج فيها كتابه "العبر" و "المقدمة" المشهورة التي هي في حقيقتها مقدمة للكتاب والتي أثارت كثيرا من الجدل ... ومن عجب أن كتابه "المقدمة" لم يستغرق من المؤلف أكثر من خمسة أشهر في النصف الأول من سنة 776هـ)³.

3- وذكر ابن الخطيب أنه شرح البردة، ولخص العديد من كتب "ابن رشد"، وكتب للسلطان في علم المنطق، ولخص محصل الإمام "فخر الدين ابن الخطيب الرازي (ت 606هـ/1209م)" وألف في الحساب وشرح الرجز الذي أصدره ابن الخطيب في أصول الفقه⁴.

4- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو عبارة عن سيرة ذاتية عرف فيها ابن خلدون بنفسه وأصله ونسبه ومشايخه والرسائل التي كاتب فيها السلاطين وأصدقاءه من البلاط وذكر كذلك خطبه ودروسه وأسفاره العلمية والسياسية وحتى الدينية لإقامة منسك الحج وذكر فيه ابن خلدون لقاءه بتيمورلنك والعهد لكتابة تاريخ وجغرافية المغرب العربي وهو ما سماه المقدمة وديوان المبتدأ والخبر، والكتاب يقع في 432 من الصفحات⁵

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، صص (407-412)

² - عبد الرحمن بن خلدون، لباب المحصل في أصول الدين، تحقيق عباس محمد حسن سليمان، راجعه محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، منشورات مركز التراث القومي والمخطوطات، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة 1996م،

³ - مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط3، سنة 1993م، ص 22

⁴ - أبي عبد الله محمد ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 539

⁵ - عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، صص (431-432)

5-شفاء السائل وتهذيب المسائل، في التصوف يوضح لنا فيه ابن لدون الأسباب والدوافع التي حملته على تأليف هذا الكتاب والذي ألفه في مرحلة متأخرة من عمره أي آخر كتبه على ما يظن يقول في ذلك (أما بعد فقد وقفني بعض الإخوان وصل من عدوة الأندلس وطن الرباط والجهاد ومأوى الصالحين والزهاد والفقهاء والعباد يخاطب بعض الأعلام من أهل فاس... طالباً كشف الغطاء في طريق الصوفية أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلمنا من الكتب الموضوعة لأهله واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفته... أم لا بد من شيخ يبين دلائله ويجذر غوائله ويميز للمريد عند اشتباه الواردات والأحوال مسائله... ونقل مناظرة مريدين جرت في ذلك رداً وقبولاً وحشرت معقولاً ومنقولاً ما بين مسوغ لهذا السلوك من غير شيخ يقتدي المريد به... وتمييز السنن في الأحوال الواردة من البدع... فذهبت إلى كشف القناع عن محل النزاع وإيضاح الحق في الوصول بهذا الطريق أو الانقطاع، وهل يستغني المريد فيها بالكتب والأوضاع أو لا بد من الإمام المتبوع والشيخ المطاع... والكلام في هذه المسألة يستدعي تحقيق طرق الصوفية وتمييزها من بين سائر الطرق وكيف استقرت عند الصدر الأول منهم في نوع من العبادة والمجاهدة واختصت بهذا الاسم ثم صاروا إلى مجاهدات أخرى وغلب اسم التصوف عليها وهو المشهور عند الكافة، وكيف استعمله بعض المتأخرين في نتائج المجاهدات فقط والرد عليهم في ذلك، فبيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض والله الهادي إلى الصواب)¹، والكتاب يدل على ثقافة ابن خلدون في علم التصوف واحاطته بما كتب في مجال التصوف سواء في عصره أو قبله، والكتاب أضاف له المحقق رسائل ثلاثة في السلوك الصوفي، لابن عباد(ت792هـ)، والقباب (ت778هـ)، واليوسي (ت1103هـ)، ويقع الكتاب في 236 من الصفحات.

ج-موقف الباحثين والعلماء من ابن خلدون:

1-تعددت الآراء حول أصالة وجدة الإنتاج المتعلق بعلم الكلام الذي أبدعه "ابن خلدون"، كما صنفه عدد كبير من الباحثين كأحد متكلمي الأشاعرة على طريقة المتأخرين ومن ذلك أ-رأى فيه بعض المعاصرين متكلماً أصيلاً يتوافر على نظرات فاحصة في مجال علم الكلام: "كلويس جارديه وجورج قنواقي وأبو العلا العفيفي"

ب-رأى "عمر فروخ": ابن خلدون أشعري المذهب، أما "محبوب ميلاد": فقد رأى فيه أشعرياً في الأصول وينتحل طريقة المتأخرين، أما "عبد الله عنان" فاعتبر أن اهتمام ابن خلدون بعلم الكلام كان مبكراً إذ أن

¹-عبد الرحمن ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، سنة 1996م، صص(32-36)

أول مصنف قام بتأليفه كان عن أحد الكتب الكلامية للفخر الرازي وهو (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) فلخصه ابن خلدون: (لباب المحصل).

ج- في حين رأى "كلود هورو" عدم استمرار ابن خلدون في فتوحاته التاريخية العقلانية والوضعية للعمران البشري ويرجع ذلك إلى أنه ظل متأثراً بالأيديولوجيا الدينية الأشعرية التي كانت سائدة في عصره¹

2- يرى مصطفى الشكعة : ان هناك جانبين من شخصية ابن خلدون جذبا أنظار القدماء والمحدثين من الباحثين (أما الجانب الأول فهو الجانب الفكري والثقافي، وأما الجانب الثاني فهو الجانب السياسي)، ففي الجانب الثقافي بالإضافة لتحصيله العديد من العلوم فان ما ميزه بتحصيله هو دراسة المنطق والفلسفة في حين لم يحفل العديد من العلماء في عصره بدراسة هذين العلمين بل حرمت دراستهما، أما في الجانب السياسي فقد اجتذبت شخصية ابن خلدون أنظار السلاطين والرؤساء فعينه سلطان تونس بمنصب "كاتب العلامة" ولم يتجاوز الثامنة عشر، ثم عينه السلطان أبي عنان المريني عضواً بمجلسه ولم يتجاوز الثانية والعشرين، وعينه أبو سالم المريني بمنصب كاتب السر والإنشاء ثم المظالم، وحين ذهب ابن خلدون لغرناطة أرسله السلطان محمد بن الأحمر سفيراً إلى أمير قشتالة ليبرم الصلح بينهما، ثم ذهب لبحاية وقلد الحجابة وهي أعلى منصب في الدولة، ثم ارتحل لمصر وبعد عامين عين بها قاضي القضاة على مذهب الإمام مالك وقد كان مقرباً من السلطان الناصر فرج الذي اصطحبه معه برحلته لدمشق لملاقاة تيمورلنك الطاغية المغولي والذي حصل بينهما ود فكلفه بكتابة تاريخ وجغرافية شمال أفريقيا².

3- علي الوردي : يرى أن ابن خلدون تجاوز الفلاسفة الإسلاميين في التفكير المنطقي الأرسطي لبيدع منطقاً لا يتسم بالصورية بل يتعداه للواقعية يقول في ذلك (اعترف ابن خلدون بأن المنطق القديم له فائدة للمفكر إذ هو يجعله بارعاً في ترتيب الأدلة والحجج ولكن ابن خلدون يعود فيقول بأن المنطق القديم لا يطابق الحياة الواقعية وأن الواجب يقضي على من يريد فهم الحياة الواقعية أن ينظر فيها حسب منطق آخر... إن الإبداع العظيم الذي جاء به ابن خلدون نشأ فيما أظن عن كون الرجل قد استطاع أن يتحرر من المنطق القديم وأن يتخذ لنفسه منطقاً جديداً)³

¹-أحمد ادريس عبد الله، موقف ابن خلدون من علم الكلام، مقالة بموقع اسراء، بتاريخ ; الثلاثاء 23 نوفمبر 2010م، على الساعة 16 : 11 زوالا على الرابط التالي : <http://esraa-2009.ahlamountada.com/t4823-topic>

²- مصطفى الشكعة، مرجع سابق، صص(21-25)

³-علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، دار كوفان للنشر، لندن، توزيع دار الكنوز الأدبية، لبنان، ط2، سنة 1994م،

-علم الكلام في عصر ابن خلدون:

هناك ثلاثة مواقف لعلم الكلام وهي:

1-الموقف الأول: إذا كان البعض يتحدث عن كون الكلام عرف قمته مع ابن خلدون، ويرى آخرون في المقابل أن هذا العلم عرف انتكاسة على يد ابن خلدون، فالقرن الثامن والتاسع عرفا متكلمين كثر يفوقون ابن خلدون انتاجا وعناية بهذا العلم من (المالكية والأشاعرة وغيرهم)

2-الموقف الثاني : تراجع الجدل الكلامي الرفيع في بلاد المغرب في هاته الفترة وانحصاره داخل المذهب السني ويرجع تراجع الأشاعرة المتأخرين وطرائقهم نتيجة اقتضاءات ظروف عصرهم وصعود خصوم سنيين أقوياء يرفضون النظر الكلامي أصلا ومضمونا وطريقة وهم يمثلون التوجه التقليدي الأكثر تشبها بمنابع الدين الإسلامي في أصلاته وفطرته رافضين كل تأويل يستفاد من مناهج قد يشتم فيها أنها تحيل على مرجعيات وأصول من خارج المجال التداولي الإسلامي السني العربي ويمكن أن نضيف الى ذلك وضعية العصر الاجتماعية العامة التي وان عرفت نوعا من الاستقرار على عهد بعض المرء الحفصيين والمرينيين الذين شجعوا العلم وأهله وشيدوا المدارس الا أنه وبعد منتصف القرن الثامن كثرت الأوبئة وتقلص انتشار التعليم فالطاعون الجارف الذي أصاب المنطقة كان بوصف بناصر البعزاتي مصيبة انهكت قوى المجتمع المغاربي ويمثل الوباء إضافة الى غرق الأسطول البحري المغربي في التاريخ نفسه حادثين في التاريخ الفكري المغربي حيث مات علماء عديدون وضاعت المؤلفات.

3-الموقف الثالث: موقف يجتمع فيه

أ-الرفض والدفاع عن علم الكلام (أ-يتبنى الكلام ممارسة، ب-يرفضه مبدأ)

ب-يجمع بين طريقتي (التأويل، الوقف)، الموقفين معا يجمع بينهما التأويل والوقف معا تبعا لطبيعة القضايا الشيولوجية المثارة¹

تعريف علم الكلام عند ابن خلدون:

في تعريف ابن خلدون لعلم الكلام نجد فيه مدحا كونه يحفظ العقيدة من شبهات المتشككين وفي نفس الوقت ترهيبا ومجانبة للخوض في علم الكلام ويربط ذلك باستخدام العقل في أمور العقيدة فيورد أدلة الشرع

¹ سعيد البوسكلاوي، موقف ابن خلدون من علم الكلام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية للدراسات والأبحاث،

المخذرة من النظر بالعقل ومغبة ذلك على إيمان المسلم يقول ابن خلدون : (هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السن وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد... اعلم أن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بما تقع في مستقر العادة، وعنهما يتم كونه . وكل واحد من تلك الأسباب حادث أيضاً، فلا بد له من أسباب أخرى ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها، لا إله إلا هو سبحانه... وهي أشياء يلقيها الله في الفكر، يتبع بعضها بعضاً والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة... وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيهِ عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فإنه واد يهيم فيه الفكر ولا يخلو منه بطائل، ولا يظفر بحقيقة (قل الله، ثم ذرهم في حوضهم يلعبون) وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه، وأصبح من الضالين المهالكين)¹.

المواضيع التي يدرسها علم الكلام حسب تقرير ابن خلدون والتي توضح موقفه منه:

التوحيد ومسائل الإيمان هي مواضيع علم الكلام يقول ابن خلدون (واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى، الذي هو تصديق، وعين أموراً مخصوصة، كلفنا التصديق بها بقلوبنا، واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بألسنتنا، وهي العقائد التي تقررت في الدين، قال صلى الله عليه وسلم، حين سئل عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر: خيره وشره" وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام)²

الموقف من علم الكلام

موقف ابن خلدون مضطرب من علم الكلام بين موقفين متناقضين:

أ-موقف إيجابي: يدافع فيه ابن خلدون عن الموقف الأشعري في العقيدة بقوة ويرد دعاوي الخصوم ومن ذلك ينافح عن علم الكلام ومنهجه ضد الرافضين للتأويل من المشبهة وغيرهم.

ويظهر ذلك في عرضه مسألة الأسماء والصفات بين المعتزلة والأشاعرة والسلف فينتخب الأشاعرة في هاته المسألة ويراهم الطرف الأوسط بين المعتزلة والسلف يقول في ذلك (القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في أي كثيرة، وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها

¹-عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، مكتبة دار المدينة للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر، ط1، سنة 1984، ج2، ص

²-عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص562

ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها، ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات، فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلمو استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها يبحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرأوها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن يكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له، وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق شبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك، فوقعوا في التحسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة... ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب، فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها، لما يلزم ذلك من تعدد القدم بزعمهم، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، وقضوا بنفي صفة الإرادة فلزمهم نفي القدر لأن معناه سبق الإرادة للكائنات وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك للمسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر، ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق، وذلك بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم، فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف، فاستحل لخلافهم أيسار كثير منهم ودماؤهم. وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق العقل والنقل ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقيح، وكمل العقائد في البعثة وأحوال المعاد والجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الإمامة، لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية، في قولهم إنها من عقائد الإيمان وإنما يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة فيها لمن هي له وكذلك على الأمة وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحة اجتماعية ولا تلحق بالعقائد، فلذلك أحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعة علم الكلام: إما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي. وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري، واقتفى طريقته من بعده تلميذه، كابن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقته، وهذبها

ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة، والأنظار وذلك مثل: إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول¹

ب- موقف سلبي: وحصرت هذا الموقف في ثلاثة مسائل هي عبارة عن حصر آرائه هي مواقف من: (العقل، الفلسفة، علم الكلام قد استوفى وظيفة فانفتت الحاجة اليه وانعدمت أسباب وجوده)

1- موقفه من العقل : متضاربة بين الدفاع عنه ورفض أدواته، ويمثل له بالميزان الذي نستطيع به تقدير الأشياء الصغيرة بينما نفقد السيطرة عليه في الأجسام الكبيرة ويمثل لذلك بالجبال ، وعلى الرغم من أن لابن خلدون موقفين متعارضين فأراه أبداع في الموقفين بطريقة احترافية فمن موقفه من العقل يسوق علة التوحيد ويفصل التفرقة بين الاعتقاد وبين الشريعة ومن ذلك قوله : (ولا تثقن بما يزعم لك الفكر مني أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفه رايه في ذلك...فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه يل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك .على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته... فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع فإذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيراتها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها...ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو فإن الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي، ذلك من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه، تتكيف بها النفس)²

2- موقفه من الفلسفة والمنطق : فاذا كان رفضه لطريقة المتأخرين علاوة على ما يشوبه من التباس وتردد قد انبنى أولاً على موقفه من امتزاج الكلام بأقوال الفلاسفة ومناهجهم، فان موقفه من الفلسفة والمنطق وأهلها لا يخلو بدوره من غموض بين القبول والرفض، يقول ابن خلدون (ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق³ في

1- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، صص(563-565)

2- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، صص(558-560)

3- المنطق عند ابن خلدون عرفه بقوله: وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات، وذلك لأن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس... وإنما يتميز الإنسان عنها -الحيوانات- بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات... فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص، وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً. وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور، لأن فائدة ذلك إذا حصل، فإنما هي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكمي. وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق

الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعياري للأدلة فقط، يسير به الأدلة منها كما يسير من سواها، ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للأقدمين، فخالقوا الكثير منها بالبراهين التي أدتهم إلى ذلك وربما أن كثيراً منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها، ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي، فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مباينة للطريقة الأولى، وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية، وجعلوهم من خصوم العقائد، لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم، وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم، ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً، من اشتباه المسائل فيهما وهو نوع واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته، استدلالهم غالباً فالجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات، هو بعض من هذه الكائنات إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم، وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل، وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجود، وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد، وإذا تأملت حال الفن في حدوثه، وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرًا بعد صدر، وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة، علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن، وأنه لا يعدوه، ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين، والتبست مسائل الكلام، بمسائل الفلسفة، بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر. ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوابع، ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم. إلا أن هذه الطريقة، قد يعنى بها بعض طلبة العلم، للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج، لوفور ذلك فيها. وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو في الطريقة القديمة للمتكلمين، وأصلها كتاب الإرشاد، وما حذا حذوه، ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده، فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم، فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع، ما في طريقة هؤلاء المتأخرين

صحيح وقد يكون بطريق فاسد، فافتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية، لتمييز فيها الصحيح من الفاسد، فكان ذلك قانون المنطق (المصدر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، صص(613-614))

من بعدهم .وعلى الجملة، فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا .وأما الآن، فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته، ولقد سئل الجنيد رحمه الله، عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه، فقال : ما هؤلاء؟ فقيل :قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص؟ فقال " :نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب " لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها)¹

نتيجة:

يظهر مما سبق موقف ابن خلدون لهذا الفن الرفض صريح لأسباب نذكر منها:

أ-ابن خلدون مقتنع بأن حشر المنهج المنطقي في الغيبات أمر غير مقبول لذلك سعى إلى ابطال الفلسفة لذلك يقول (اعلم أن هذا الفن قد اشتد النكير على انتحاله من متقدمي السلف والمتكلمين .وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه وحظروا تعلمه وتعليمه .وجاء المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب، فساحوا في ذلك بعض الشيء)²

ب-وبجده يؤاخذ على فلاسفة الإسلام المشائين تقليدهم فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو ويرفض ابن خلدون تعظيم أرسطو والانبهار بفكره فرفض العلم الطبيعي المشائي محتجا بعدم تطابق ما يستخرجه الفلاسفة من نتائج ذهنية اعتمادا على حدود وأقيسة منطقية مع ما يوجد في عالم العيان

ج-ابن خلدون لا يعدم أدلة مقنعة في رده مزاعم اليقين لدى الفلاسفة ذلك لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد ما يمنع مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي إلا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين غير أن ابن خلدون يسلم لهم بدعاويهم العلمية، فثمة أحكام يقينية أو تكاد تنطبق على الأشياء المادية الحسية، ولذلك لا يصح أن ننكر كل آرائهم في علم الطبيعة، خاصة منها ما يتعلق بالمعقولات الأولى لكن وان كان يجعل الشك الأنف يحمل على المعقولات الثواني فقط إلا أنه لا يتوانى في الدعوة الى الاعراض عن النظر في العلم الطبيعي بمعقولاته³.

1- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص ص(565-567)

2- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص616

3- سعيد البوسكلاوي، مرجع سابق، ص 21

د- ابن خلدون يرى انحراف علم الكلام عن مقاصده الأولى فينفي كل فائدة دينية أو دنيوية ترجى من هذا العلم فيجب ترك الخوض فيه تماما وله كلام وحجج ابنتى عليه موقفه، ليخرج بتأييد رفض المنطق ومن ذلك قوله (وذلك أن المتكلمين لما وضعوا علم الكلام، لنصر العقائد الإيمانية بالحجج العقلية، كانت طريقتهم في ذلك بأدلة خاصة وذكروها في كتبهم كالدليل على حدوث العالم بإثبات الاعراض وحدوثها وامتناع خلو الجسام عنها وما لا يخلو عن الحوادث حادث وكإثبات التوحيد بدليل التمانع وأثبات الصفات القديمة بالجوامع الاربعة إلحاقاً للغائب بالشاهد وغير ذلك " من أدلتهم المذكورة في كتبهم ثم قرروا تلك الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها مثل إثبات الجوهر الفرد والزمن الفرد والخلاء بين الاجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات وأن العرض لا يبقى زمنين وإثبات الحال وهي صفة لموجود لا موجودة ولا معدومة وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة ثم ذهب الشيخ أبو الحسن والقاضي أبو بكر والاستاذ أبو إسحق إلى أن أدلة والقدح فيها قدح في العقائد منعكسة بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة العقائد لا بتنائها عليها... وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق ابطلنا كثيرا من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما مر، فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق، وعدوه بدعة أو كفرا على نسبة الدليل الذي يبطل والمتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلة، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله، وضح عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكلياتها في الخارج، قضوا بأن المنطق غير مناف للعقائد الإيمانية، وإن كان منافيا لبعض أدلتها، بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية، كنفى الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأعراض وغيرها، ويستبدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي ولم يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه، وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعهما لهذا العهد¹

ه- ابن خلدون يقصد الفيزياء الأرسطية كما الفلسفة والمنطق المشائيين ولعل أكبر حاجز اعترض استنبات العلوم وترسيخ قيم البحث العلمي في البيئة الإسلامية كان هو الخلط الذي وقع فيه كثير من علماء الإسلام السنيين منهم بالخصوص بين الفلسفة المشائية والفلسفة اجمالا وبين المنطق الأرسطي والمنطق عموما

1- تيار المشائين: حيث لم يستطيعوا التحرر أبدا من اغراء الفكر الأرسطي وقوته

2- تيار غير المشائين: الذي لم يكن بإمكانه أن ينجح في تشييد فلسفة ومنطق بديلين الا باستثمار بعض الأصول الأرسطية نفسها أو الأفلاطونية أو غيرهاما للتحرر من هيمنة الفكر الأرسطي

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص ص(617-618)

و-ارتبط علم الكلام في رأي السنين الحنابلة بالعقيدة الاعتزالية التي يرجعون أصولها إلى تقاليد يهودية ونصرانية ويونانية ناكرين حضور أي عناصر أصيلة لدى المعتزلة والإسلاميين.

ز-ابن خلدون لا ينكر فائدة الفلسفة وثمرتها شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين، كما لا ينكر فائدة المنطق فيراه قانونا يهتدي به العقل للتمييز بين الحق والباطل وينتقد منهج الفلاسفة لأن البراهين المنطقية لا تخلو من قصور ولا تفي بالغرض ويؤكد حاجة المتعلم للمنطق للتخلص من ورطة فساد استدلال ما إذا عرض ويقرر إمكانية الاستغناء عنه لكونه أمرا صناعيا¹.

3-موقفه من علم الكلام والاشتغال به جملة : لا ينكر ابن خلدون أهمية علم الكلام في الحجاج والدفاع عن عقائد الإسلاميين، لكنه رفض دمج مباحث اجتماعية سياسية كالإمامة بالعقائد، كذلك ينتقد طرح المتأخرين من علماء الكلام العقائد بمنهج ومباحث الفلسفة، وهذا ما يوضح إصراره على انتهاء فعالية هذا العلم والحكم عليه بالانتهاء وينتخب علم الكلام ببداية عهده ويراه أكمل صورة لعلم الكلام رغم المؤاخذات التي ذكرتها سابقا، يقول في ذلك (وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد .وإذا تأملت حال الفن في حدوثه، وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرًا بعد صدر، وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة، علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن، وأنه لا يعدوه. ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين، والتبست مسائل الكلام، بمسائل الفلسفة، بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر .ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوابع، ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم .إلا أن هذه الطريقة، قد يعنى بها بعض طلبة العلم، للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج، لوفور ذلك فيها .وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو في الطريقة القديمة للمتكلمين، وأصلها كتاب الإرشاد، وما حذا حذوه. ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده، فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم، فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع، ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم .وعلى الجملة، فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا .وأما الآن، فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته. ولقد سئل الجنيد رحمه الله، عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه، فقال : ما هؤلاء؟ فقيل :

¹ - سعيد البوسكلاوي، مرجع سابق، ص 23

قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص؟ فقال: نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب "لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها)¹.

موقف ابن خلدون من علم الكلام في كتابه لباب المحصل

أردت أن أفرد لهذا عنوانا مستقلا لأن محقق هذا الكتاب بدوره استغرب الفيصل بين هذا الكتاب والمقدمة يقول المحقق (يلاحظ أسلوب ابن خلدون في ملخصه المسمى "لباب المحصل" يختلف إلى حد كبير عن أسلوبه السهل في مقال "المقدمة" الأمر الذي جعلنا نشكك في نسبة هذا الملخص إليه، وتنقسم هذه الرسالة الملخصة إلى مقدمة وأربعة أركان كالتالي

- 1- في المقدمة يبين ابن خلدون السبب الذي دفعه إلى القيام بهذا التلخيص وقد سبقت الإشارة إليه
- 2- جاء الركن الأول في البديهيات هي حقائق تدرك في ذاتها من حيث هي دون أي اعتبار أو تصور، ثم يحاول معالجة موضوع التصورات فيرى أنها غير مكتسبة وذلك لأمرين
-أولهما، أن المطلوب إن كان مشهورا به طلب حصوله، وثانيهما، أن تعريف الماهية لا يكون بذاتها)².

ثم يشرع في توضيح ذلك فيقول (ومعنى هذا أن ابن خلدون يرد على القائلين بالمثل من الفلاسفة حينما يقولون إن المثال هو ماهية الإنسان بالذات أي المنطق، ويرى ابن خلدون استحالة ذلك لجواز اختلاف الأفراد بلوازم مختلفة فينظر إلى الماهية على أنها تحمل كثرة هذه اللوازم ويعود إلى بحث التصور فيشرح معنى أنه غير مكتسب قائلا إنه إما بديهي أو حسي أو وجداني أو ما يركبه العقل، وهو هنا يعيد إلى الأذهان ما سبق ذكره في المقدمة من حيث أن الإلهام هو طريقنا إلى إدراك هذه التصورات وكيف ان هذه التصورات هي أجزاء للتصديق، ومعالجة التصديق هنا هي معالجة منطقية فلسفية لم يتعرض لها ابن خلدون في مقدمته، ويستطرد ابن خلدون في ملخصه فيذكر أن البسيط لا يعرف إذ المركب وحده هو الذي يمكن تعريفه تعريفا حديا أي التعريف بالحد بينما يجب أن نحتز في نظره عند التعريف بالرسم أو بالأخفى أو العين وهو يقدم الأعم لأنه أعرف ولأن هذا الأعم أي التعريف أو الحكم كما نقول هو ما يسميه هو بالتصديق والتصديقات غير بديهية بينما البساط بديهية، ويستطرد ابن خلدون في الرد على الطوسي الذي يرى بقاء ما ليس بباقي مثل الصفات الثانوية للأشياء قائلا بأن هذه العوارض تزول وتفتى مع الزمان وأن الوجود الحقيقي في الزمان هو وجود

¹- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، صص(566-567)

²- عبد الرحمن بن خلدون، لباب المحصل في أصول الدين، ص18

الجوهر، وهنا نجد ابن خلدون يختلف في موقفه هذا عن موقف الأشاعرة الذين يرفضون فكرة بقاء الجوهر في الزمان وأن الوجود الحقيقي هو للذوات وللآنات الزمانية التي يخلقها الله لمناسبة الفعل الأمر الذي يدل عن أن بعض محتويات هذه الرسالة ليست أشعرية و أما قوله بأن الحس لا يستحضر زمانين فهذا موقف أشعري صحيح، وكذلك قوله بأننا لا ندرك الكل في كليته بل ندرك الأجزاء أي الذرات في آنات منفصلة لا يربط بينها سوى الفعل الإلهي، ويذكر ابن خلدون أن البسائط هي من المحسوسات ومن فقد حسا فقد العلم المقابل له وهذا الرأي الذي يقول به الطوسي ضعيف من وجهة نظر ابن خلدون لأنه حينما أراد أن يعطي أمثلة على البسائط أورد بعض البديهييات كأمثلة عليها أي على البسائط وهي أربعة أمثلة تتضمن

1- أن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان 2- أن الكل أعظم من الجزء

3- الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية. 4- والجسم الواحد في الزمان الواحد لا يكون في مكانين

ويناقش ابن خلدون الفكرة القائلة بأن الكل أعظم من الجزء كما يقول الطوسي يرى أن المطلوب عنده همة التسليم بان الكل هو مجموع الأجزاء بالإضافة إلى كليته أي أن صفة الكلية تنضاف على الأجزاء كصفة زائدة، وهنا نجد أن رأي الأشاعرة يتلخص في ان الإدراك ينصب على الجزئي دائما وأن الكليات لا يمكن أن تكون بهذه الصفة أي في صورتها الكلية المؤلفة من جزئيات إلا بفعل التدخل الإلهي ولهذا فهو يرد على صاحب المحصل وعلى الطوسي فيما يسميانه بالبديهييات وهو يرى أنها غير بديهية من حيث الإمتناع أو العدم، ويستمر ابن خلدون بعد ذلك في مناقشة البديهييات التي أوردها صاحب المحصل وقبلها الطوسي فيتناولها بالتفنيد البديهية تلو الأخرى على طريقة الأشاعرة لينتقل بعد هذا إلى مناقشة حقيقة الإدراك الذي هو لباب المعرفة ويضع أدلته في صورة مسائل وأولى مسائل الإدراك التي يتناولها ابن خلدون هي أن الإدراك إنما يقوم على مقدمات يقينية تفضي بنا إلى نتائج أو قضايا أخرى قائلا إن هذا هو أيضا مفهوم الاستدلال وبهذا يؤكد ابن خلدون أن الإدراك العقلي صادق في العلم وفي الإلهيات على خلاف ما يراه الحسيون، أما معرفة الله بغير معلم فابن خلدون يشجبها تماما اتفاقا مع ظاهر الشريعة الإسلامية التي تقر بالوحي والنبوة ونراه في هذه المسألة بالذات يميز بين قول المعتزلة بمعرفة الله فقط وقول بعض المعتزلة والأشاعرة بضرورة الوحي والنبوة¹

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، لباب المحصل في أصول الدين، ص (18-20)

ويعقب المحقق بعد دراسة لمباحث ومسائل الكتاب أن الكتاب لا يتوافق تماما مع عقيدة ابن خلدون يقول (ولهذا نرجح كثيرا ما يلي إما أن هذه الرسالة مشكوك في أمر نسبتها إلى ابن خلدون أو ان ابن خلدون قد استمع إلى ملخصها من شيخه الأبلي)¹

تقييم الموقف الخلدوني:

1- هو وصف واقع أكثر مما هو تنظير وصف الحالة العلمية في عصره وقبلها ولنا في وصفه وضعية علوم أخرى ففي وصفه واقع علم الخلافات يسجل الفقيه المالكي بكل حياد أن (تأليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم فهم لذلك أهل النظر والبحث، أم المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل)

2- ويقول عن علوم الجدل (هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين المذاهب الفقهية فينتبه إلى أنه بعد تطور الحضارة وانتشار التعليم والمناقشة والخلاف في عدة مسائل فقهية وغير فقهية، برزت الحاجة إلى التصنيف في هذا العلم أي إلى معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره)

3- وهو أمر مرتبط بالمسألة الأولى موقف ابن خلدون ليس جديدا ولعل أكبر خلاف طبع التاريخ الفكري الإسلامي، وأشد الخلاف هو الصراع بين تيار العقليين أو أهل الرأي بشكل عام ومتكلمين وفلاسفة وفقهاء ومفسرين ومحدثين ولغويين وبين تيار النقليين المتشدددين خاصة في الجانب السني الرافضين للكلام واعمال الرأي والقياس ويتشبهون بالأخبار والرواية عن السلف، وان كان هذا يمنعهم من أن يخوضوا بدورهم في الكلام والفلسفة والمنطق وينتجوا عمليا آراء نظرية عميقة في هذه العلوم التي ظلوا متشبثين مبدئيا برفضها.

4- بعد اجتثاث الفكر الفلسفي المشائي والعقيدة الإعتزالية من التربة السننية بشكل يكاد يكون نهائيا فانحصر الخلاف بين الأشاعرة والحنابلة، بين المدافعين عن الكلام والرافضين لهذا العلم فقد ألف أبو الحسن كتاب الإبانة انتصارا لمذهب الحنابلة، بين المدافعين عن الكلام والرافضين لهذا العلم فقد ألف أبو الحسن كتاب الإبانة انتصارا لمذهب الحنابلة وارضاء للعامة على حساب مذهب المعتزلة الذي انغلق في نخبوية قاتلة وحفظا لوحدة الإسلام والأمة وتفاديا لخطورة الصراع العقدي والسياسي الذي كان قد وصل أوجه بين التيارين ولانعكاساته السلبية على أمن واستقرار الدولة والمجتمع الإسلاميين، وفي مقابل كتاب الإبانة ألف أبو الحسن

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، لباب المحصل في أصول الدين، ص34

رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، ولا يخفى أن الدفاع عن الكلام هو دفاع عن الكلام هو دفاع عن النظر واعمال الرأي ضدا على المناهضين للجدل والكلام في قضايا الدين فلا نستغرب اذا اجتمع نقد الأشاعرة والمعتزلة في وصف الحنابلة بالجهل والتقليد

5- مؤرخ الأفكار ابن خلدون سجل مفارقة في تاريخ الكلام وامتزاجه التدريجي بأصول المنطق والفلسفة، ووصل أوجه مع المتأخرين من السنة والشيعية، ففي الوقت الذي وصل فيه امتزاج علم الكلام بالمنطق والفلسفة قمته مع الغزالي وابن تيمية فهذان الفيلسوفان ينبهان على ضرورة تجنب الخوض في هذا العلم

6- ظل موقف السنيين التقليديين من هذا العلم الذي استحدثه المعتزلة شائكا فمنذ نشأة علم الكلام العلم النظري الذي يخوض في أمور الدين وسؤال فائدته والتشكيك فيه قائما من الفقهاء والمحدثين وظل الصراع بينهم وبين المعتزلة حول إعطاء الأولوية للعقل على حساب النقل أو للنقل على حساب العقل.

7- لا يرفض ابن خلدون الكلام جملة بل يرفض كلاما معيناً وطريقة معينة فلا ينتصر للتفويض على حساب التأويل بل يدعو إلى العودة إلى الأصول الأولى لمذهب السلف كما سطره الشيوخ الأوائل كأبو الحسن الأشعري الذي توسط بين الطرق وانتصر لمذهب السلف بالأدلة العقلية ورد البدع المخالفين بحججهم نفسها دون أن يجعل من الدليل العقلي وسيلة لإثبات العقائد كما حصل مع الأشاعرة المتأخرين فهؤلاء حاولوا اثبات عقائد السلف بالحجج العقلية والأقيسة المنطقية، فامتزجت مذاهبهم بمذاهب خصومهم المتأخرين وهي مذاهب المتأخرين وهي مذاهب حافلة بتعقيدات نظرية ليست في متناول الجمهور الذي وجد في مذاهب أهل الحديث ملاذا واطمئنانا على عقائده التقليدية

8- ولذلك أئمة المحدثين نقدوا المتكلمين بسبب تأويلاتهم المغرقة في النظر وحجاجهم وسجالاتهم المنطقية البعيدة عن أفهام الجمهور والأشاعرة المالكية في بلاد المغرب تأثرت بدورها بهذا التوجه النقدي تجاه الجدالات الكلامية الغارقة في التجريد النظري ورفض اعتماد أصول الفلاسفة ومناهجهم¹.

9- ابن خلدون لا يخفي توجهه المذهبي المالكي الأشعري على طريقة أهل بلاد المغرب ودفاعه القوي عن هذه العقيدة ومشاركته في المجادلات العقيدية التي كان يثيرها أهل زمنه غير أنه لا ينخرط انخراطا حقيقيا في مواجهة خصوم الكلام خصوم العقيدة الأشعرية

10- لقد اتخذ ابن خلدون لنفسه مسلكا انتصر فيه لأشعرية مفوضة عكسته مواقفه المتذبذبة بين الانتصار الصريح للتأويل الكلامي واعمال النظر وبين الخضوع للموقف الراض للتأويل والقول بانتفاء الحاجة اليه وهو

¹ - سعيد البوسكلاوي، مرجع سابق، ص 26

الموقف الذي بدأ يكتسح الساحة العقديّة في هذا العصر تحت ضغط فقهاء المالكية ووصول صدى الموقف الحنبلي في صورته التيمية من الشرق، فاذا كان يميل في:

أ- موقف أول الى نكران ضرورة التّأويل والحاجة إلى النظر الكلامي

ب- موقف يعكسه مؤلفه لباب المحصل الذي هو مؤلف لخص فيه أحد أمهات الكتب العقديّة الأشعرية التي كان لها حضورها القوي في الدراسات الكلامية في الغرب الإسلامي فهو يميل أكثر لتقرير مذهب أهل التفويض الذي جعله مذهب السلف، فانه في الموقف الثاني ينتصر للتّأويل وأهله في مواجهة المشبهة من أهل الحديث لا ضدا¹

خاتمة:

تناولت في هاته المداخلة عدة نقاط وحاولت الاعتماد على ما قاله ابن خلدون بنفسه لاعتماد الدقة والموضوعية، ابن خلدون هو علامة مغربي وهو مؤرخ وقاضي وسياسي وعالم اجتماع وفيلسوف تاريخ ومتنسكا صوفيا لم يترك علما إلا وتعرض له بالتحليل أو الإشارة، وبعد دراسة موقفه من الكلام اتضح لنا أن موقفه من علم الكلام يتمكن حصره في نقطتين

1- أنه يراه علما تم التدوين له بشكل كاف مما يريحنا من عناء البحث فيه، بالإضافة لانعدام المتشككين والملاحدة فليس من داع من الإبقاء على هذا العلم فقد ولت مرحلته.

2- أنه يراه علما يدافع على العقيدة الإسلامية وينتخب المذهب الأشعري كأوسط المذاهب الإسلامية عامة والمذهبيين الإعتزالي والسلفيين أي بين التفويض والتّأويل.

¹ - سعيد البوسكلاوي، مرجع سابق، ص 27